ما جرى في ليلة مقمرة...

«يُقال أنَّه لا يكبر، ولا يشيخ. أذكره منذ كنتُ في سنِّكم، ربَّما كنتُ أصغر منكم».

ينظر لـه الأولاد مشدوهين، عيونهم تبرق في حماس وخوف ممتزج بالفضول. فيكمل هو حكيه الذي لا ينتهي.

كان موعد جلسته السنوية. أكبر رجال القرية سنًّا. شيخٌ عجوزٌ يقترب من المائة. يجلس على مصطبته القديمة أمام باب منزله الخشبي. كان في كلِّ عام يجلس هكذا جامعًا كلَّ نساء القرية؛ لكنَّه هذا العام طلب منهن إحضار أولادهن ليحكي لهم ما لم يسمعوه من قبل. يحكي عما تداوله الناس منذ سنين، وعمَّا يُحكى دون تصريح.

«من بلغ منكم الرابعة عشر ليبقَ. وليرحل من هو أصغر سنًّا». يتلفت الأطفال حولهم بفضول ودهشة. من أتمّ السن يظلُّ جالسًا بفخر. ويقوم الباقون في تخاذلٍ وضيق. يتطلعون حولهم بأمل أنْ يقول لهم أن ينتظروا، لكنَّه يظلُّ ناظرًا إليهم بعينيه الرمادية التي لا ترى.

«هل ودعتم أمهاتكم؟».

يهمهمون جميعًا بفرح، ترحل الأمهات وهن ينتحبن. يشير هو لهن إشارةً خفيَّةً بعينه الكليلة، وتحمل الباقيات أطفالهن الصغار الذين غادروا وهن يهرولن بعيدًا عن المجلس.

في دقائق خلت الساحة الكبيرة أمام مجلس الشيخ تمامًا. ظلَّ هو صامتًا ينتظر. لا صوت سوى صوت تنفس الأطفال المتصاعد. ضوء الغروب الذي يغمرهم، وهم يفكرون فيما سيسمعونه.

لم يتركهم العجوز لخيالاتهم كثيرًا، خرج صوته المهتزُّ ليسألهم: «هل غادر الجميع؟» يهمهمون بأن نعم.

يدير رأسه حوله كأنَّما يتأكد، فيشعر بهواءٍ باردٍ يأتي من بعيد. «لتسمعوني جيدًا إذن. ما سيقال لن يقال سوى مرَّةٍ واحدة فقط. ولن تنقلوه لأحد. سيظلُّ سرًّا طيَّ صدوركم حتى تموتوا. لن تتكلموا فيه حتى مع بعضكم البعض. هل تفهمونني؟».

يهمهمون بتوتر واضح. «أنتم الآن رجالٌ. حتى قبل أنْ أخبرَكم، رجالًا كنتم، ورجالًا ستبقون».

يتحشرج صوته، فيسعل ويبصق جانبه: «ألم تسألوا أنفسكم من قبل أين آباؤكم؟ وأين ذهبوا؟».

لم يكن ينتظر منهم إجابة، لكنَّه صمت قليلًا ليتركهم ينظرون لبعضهم البعض قليلًا، قبل أن يواصل: «لماذا لم يأتِ أحدٌ منهم من سفره الطويل كما قيل لكم؟ ألم تفكروا قليلًا أنَّ أيًّا منكم لم يرَ أباه من قبل قطُّ؟». تحفزوا أمامه في جلستِهم، تبعثر نظامهم الذي كانوا يحرصون عليه دائمًا.

«أين رجال القرية؟».

«تسمعون منذ صغركم حكاية ذلك الذي لا يكبر. والذي لم يره أحدكم حقًا. فقط تعرفون أنَّه موجود من حكاياتنا عنه، ولا تعرفون سوى ما أخبرتُكُم به. حتى أمهاتكم، لا يعرفن عنه أكثر منكم. سأعيد ثانيةً ما قد تكونوا سمعتموه من قبل؛ لكنَّه مهم».

«هو موجود منذُ أنْ كنتُ في سنِّكم، ومن قبل هذا حقيقة لا أحد يستطيع أنْ يجزمَ منذ متى وهو موجود؛ لكنَّه موجود. هو لا يكبر ولا يشيخ. يتداول الأجيال عبر عمره الممتدِّ دون أن تظهر عليه علامات الزمن».

«يفعل في القرية ما يشاء. يقدمون له الطعام، والنقود، والملابس؛ بل والنساء أيضًا. قرابين لا حصر لها كانتْ توضع تحت قدميه؛ ليصرفوا شرَّه. كان يفعل ما يشاء في القرية والقرى المجاورة. هو لا يبتعد كثيرًا. وإن كان نفوذه يمتدُّ بعيدًا حقًّا».

«جلستُ مثلكم هكذا في يوم بعيد جدًّا، لازلتُ أذكره كما الأمس؛ لأسمع السرَّ. كان هناك رجلٌ مثلي، شيخٌ عجوزٌ هو من يحكي لنا كل ما حكيتُه لكم. أخبرنا أن ثمَّة شيخًا آخر أخبره بالحكاية وهو في مثل سننا آنذاك. اختاره الشيخ ليحلَّ محلَّه ذات يوم، كما اختارني الشيخ لأحلَّ محلَّه في يوم محدد. وسأختار أحدكم ليحلَّ محلي في يومٍ من الأيام؛ ربما اليوم

وربما فيما بعد». صمت ليستمع لصمتهم الطويل، يشعر بالحيرة تتدفق من تنفسهم المتسارع.

«هل تفهمون شيئًا؟» يسألهم بصوته المهتزِّ.

همهمتهم النافية جعلتَّهُ يبتسم بشفاهه المتشققة الجافة. «حسنًا، لا يهم. ستفهمون حالًا كلَّ ما أودُّ أنْ أقوله».

«يُقال من ضمن ما يُقال. بأنَّ الأمر قد بدأ بأن الذي لا يكبر اختار وقتًا قمريًا مُعينًا».

«ليلة مقمرة، كانت فيها كلُّ نسوةِ القرية خاليات البطن، لم تكن فيهن ولا حبلى واحدة. وجمع رجالهن وأرسلهن بعيدًا دون أن تدري واحدة أين ذهب زوجها».

«كانت ليلة صيفيَّة، باردة الهواء. القمر يضيء السماء ويتسلل لفرشهن الخالية. عندما ظهر لهن كلهن في نفس الوقت تقريبًا. جميعهن أجمعن أن ما تمَّ قد تمَّ في ذات الوقت. فجأةً وجدوه أمامهن، أمام فراش نومِهن الخالي. وقام بمُضاجعتهن جميعًا مُضاجعة الأزواج؛ مُضاجعة مُشبعة طويلة امتدت من منتصف الليل حتى بعد الفجر. لم يقم من على أيِّ واحدة منهن إلا وكانتْ قد حبلتْ منه. لم ترفضه إحداهن، حتى بينها وبين نفسها. ذقن جميعًا ما لم يذقنه من قبل. يُقال بأنَّ ذكره لا مثيل له. لا أنثى مهما كانتْ قادرة على احتوائه. تصاعدتْ أصواتُهن جميعًا تشق حارات القرية كلها، وتدوِّي في الليل. من مسِّها، لم يمسها ثانية، كما كانتْ عادتُه. ولم تترك هي ذكرًا آخر يمسُّها. لم يكن هناك ذكورًا آخرين. كانتْ مضاجعة العمر كلِّه، ظلَّتْ أعضاؤهن مرويَّةً شبعى، لم يشعرن بشهوة بعدها أبدًا».

«بعد تسعة أشهر تامة، وضعتْ كلُّ نسوةِ الحيِّ أطفالًا لهم أب واحد».
«الغريب بعدها أن جميع النسـوة قد جمعن أنفسهن، وذهبن إليه في خلوته أعلى الجبل. طلبن منه برجاء حار أن يغير قانونه الذي استنه. كن يتقاطرن شهوة من رؤيته أمامهن عاري الجذع، يتربع على دكته أمام عريشته الصغيرة. طلبن منه أن يمسسـهن ثانية. لا معنى لأن يمسسـهن مـرَّةً واحدة فقط. لا ذكور آخرين هناك، ولا ذكور آخرين هناك»، قالها الشيخ وابتسم متأكدًا من عدم فهمهم للمعنى.
«في تلك الليلة قرر التنازل عمَّا قرره من قبل. وقام بفعلها للمرَّةِ الثانية. في تلك المرَّةِ فعلها مع كلِّ واحدة على حدة على دكته الصغيرة، خلع سرواله الفضفاض. وطلب منهن التحلق حوله في دائرة. كن مُغيبات، شـبقات. خلعن ملابسهن أمامه؛ ليأخذ بيد أولهن ويفعلها أمامهن.
ظلَّ هكذا من الليل حتى عصر اليوم التالي. قام بمضاجعتهن جميعًا أمام بعضهن البعض. يقُلن بأنَّ ذكره لم يرتخ، ولم يفقد شـهوته لثانية. تداولن الحكايـاتِ السريَّة، والأغاني التي لا يعرفها سـواهن متباهيات بفحولته المخالفة للمنطق. في تلك الليلة ملأ بطونهن جميعًا أيضًا. حبلن منه، وولدن أطفالًا أيضًا لهم أب واحد».
«ظلَّ الحال هكذا طويلًا. يضاجعهن، ليحبلن، ليلدن؛ حتى كبر الأولاد، وهرمتِ النِّساء. لم يعدن يتحملن فحولةَ ذكره. يُقال بأنَّ هناكَ بعضَ النسوةِ قد متنَ أسـفل منه. ظلَّ الأمر هكذا. حتى كـبر الجيل الأول من أولاده، وبلغتِ الفتياتُ مبلغ النِّساء، وخُرطن ليصبحن إناثًا ناضجات. حللن محلَّ النِّسوة الأوائل؛ ليفعل معهن نفس ما كان يفعله مع أمهاتهن. جمع الأولاد

الذين كبروا وقام بإرسالهم لمكان لا يعرفه غيره. ظلَّ الحيُّ مكانًا للنِّساء فقط؛ نساء وأطفال. كانت الفتياتُ تناديه: أبي. حتى وهو يضاجعهن. لم يُشبع شهوتهن أحد غيره».

«في زمن معين اختار أن يستقر بالجبل. لم يعدْ ينزل للناس، ولم يعدْ يراه أحد. وهذا هو السِّرُّ في عدم رؤيتكم له، بالتأكيد كلكم تتسائلون لماذا أحكي لكم كلَّ هذا الآن؟».

جاوبتْه همهمات متداخلة من الأطفال المذهولين أمامه، فظلَّ ينظر إليهم دون أن يطرف قليلًا؛ قبل أن يقول لهم: «لأنَّه قد حان موعدكم». لم يفهموا وظلُّوا ينظرون إليه وهم يهمهمون. هبَّ من مكانه بصعوبة، وقام بفرد قامته المحنيَّة وهو يقول لهم: «هيَّا بنا، ستأتون معي». كان يبتسم لهم ابتسامة واسعة.

«لا تخافوا. سنكمل حديثنا ونحن سائرون».

هبُّوا معه جميعًا. وقفوا يتطلعون للمكان حولهم. كان الصَّمتُ يغلِّف كلَّ شيءٍ. أمسك بكلوب الإضاءة الكبير، وبدأ السير. كان يتجه لمخرج القرية، يتبعونه في صمت وخوف. «لم يسألني أحدكم أين هو؟ وأين يعيش؟». كأنما ابتلعوا ألسنتهم، ظلُّوا يهمهمون دون معنى.

«هو إرثٌ تركه لنا جميعًا، وعلينا إكماله».

كان الجوُّ يزداد برودةً وظلمة. والطريق يتحول من صخرٍ ممهَّدٍ، لصخر قاسٍ متناثر أمامهم، كانوا يتجهون ناحية الجبل، يرون خياله الأسود في الأفق، ويفكرون فيما سيحدث. يرتجفون بردًا وخوفًا، ورهبة ممَّا لا يدرونه.

«لقد أوكل إليَّ تكملة مهمته، اختصَّني دون غيري بالكشف عن نفسه. لو كنتم محظوظون سنراه هناك». دبَّ الحماس في عروقهم الفتيَّة، وجعلهم

هذا يكملون سيرهم سريعًا بين الصخور دون جهد. هو أيضًا كان يسير دون تعب. من يراه جالسًا في جلسته اليومية؛ يظنُّ أنَّه لا يستطيع المشي كلَّ هذا دون تعب. كان يبدو جانبهم على ضوء اللهب الخافت فتيًّا. ازداد طولًا وقوَّة. حتى صوته بدا جهوريًّا دون بحَّة، أو حشرجة اعتادوها منه.

يقتربون من الجبل. فيزداد الهواء عُنفًا وبرودة. يقتربون من بعضهم البعض، يسيرون في مجموعات متقاربة ككتلة واحدة. يحثُّهم هو على الصَّبر والتحمل: «اقتربنا كثيرًا، لا يتبقى سوى القليل».

كان الطريقُ أسفل الجبل يبدو مُمهَّدًا لأعلى. مدق صغير قام أحدهم بصنعه للصعود. قبل المنتصف وجدوا كهفًا غائرًا مختفيًا خلف صخرة كبيرة. اقترب هو من المدخل قبلهم. كانتْ ثمَّة إضاءة تبدو من الداخل، يمسك بالكلوب في يده، ويرفعه لأعلى. يقتربون كلهم منه وهم ينهجون ويرتجفون.

كان طوله قد ازداد. كلهم لاحظوا هذا دون أن يعلِّقوا. طال شعره، وتحوَّل لونه للون الليل حولهم. اللهب يتراقص، فتتراقص ملامحه في عيونهم. يبدو أصغر مما كان، لولا خوفهم من المكان لفروا منه جريًا، يشير لهم أن يقتربوا منه، يقف أمام مدخل الكهف. يتجمعون أمامه في دائرة متقاربة.

ينظر حوله ويتطلع لأعلى ليرى القمر المضيء المُعلق في كبد السماء فوقهم. يهمس لهم بصوتٍ نقي لم يسمعوه من قبل: «جاء دوركم لتكملوا ما بدأ منذ سنين طويلة، تمَّ اختياركم لتكونوا أول مجموعة تفعل ما ستفعل. الليلة قمريَّة رائقة تشبه بالضبط أول ليلة بدأ فيها الأمر».

كان صوت تنفسهم يعلو. خائفين؛ بعضهم بلل سرواله، وبعضهم كان

ينشــج دون صوت. ظلَّ ينظر لهم قليلًا قبل أنْ يقول: «لتنظروا لي جميعًا. لتتطلعوا في عيني قليلًا».

نظروا جميعًا له دون صوت، شعروا أن عينيه تتسع وتزداد غرقًا. نسوا خوفهم، وبكاءهم. وظلُّوا جميعًا يقبعون في عينه المتسعة.

«عندما ننتهي سنهبط لنذهب للقرية من جديد، سندخلها صامتين، لن يحكي أحد عما حدث، ولا عما سمعتموه، أو شاهدتموه. أنتم رجالي هناك. ستلبثون قليلًا في القرية حتى نرى ثماركم قد أينعتْ، ثم سأرسلكم كلّ إلى قرية لتكملوا ما بدأ منذ سنين. حان الوقت لنبدأ عهدًا جديدًا».

تراجع خطوةً للوراء وأشــار لهم ليتبعــوه، فلمحوا كهوفًا أخرى تمتدُّ بطول الجبل، كلها مخفية خلف صخور ضخمة تصدر منها إضاءة خافتة، وأصوات متآكلة. دخل الكهف فتبعوه دون تفكير للداخل.

كان الكهف كبيرًا. مضاءًا بالعديد من مصابيح الجاز والشعلات المُعلَّقة على الحوائط. حينما دخلوا وجدوا أمهاتهم بالداخل. يجلســن على وسائد فرشتْ لهن على الأرض. ما أن رأى كل واحد منهم أمَّه حتى جرى إليها وارتمى في حضنها.

اتجه هو ليقفَ في منتصف الكهف، طويلًا، له نظرة سوداء لا تطرف. كانت الأمهات مُستلبات، يربتن ببطء على أولادهن، قبل أنْ تسحب كلُّ واحدة منهن ابنها بجوارها على الفراش الأرضي. وببطء وآلية بدأتْ كلُّ واحدةٍ في خلع ملابس ابنها بالكامل؛ قبل أن تضمَّه إليها جيدًا، وهي ترفع رداءها لتحيط به بين فخذيها.